لن نرى العالم بأعينهم

زهرة زيراوي

يعيدني سؤالُ الرقابة الذي طرحتْه مجلةُ الآداب إلى ما حدث منذ أربع سنوات. ذلك أنّني بعثتُ إلى أحد منابرنا الصحفية الوطنية بقصة قصيرة عنوانُها «عندما حول الثور الأرض.» والقصة تَعْرض ما يعانيه الأفرادُ، على اختلاف دياناتهم ومرجعياتهم، من قمعٍ قادمٍ من سلطة الدين أو سلطة الدولة. في الحوار الذي يدور بين ميشيل العلمانيّ الغربيّ، وأحمد المأخوذِ بما يراهُ في الغرب، يقول ميشيل:

«...أكّدوا لنا: لا للديانات، لا للعربيّ. أكّدوا لنا على المال والجنس والحرية! أُحسّ مع الزمن، ومع ما أكتشفه من اصطدامي بالعالم ومن تجارب الذات، أنّ الحياة دائمًا ليست في ما علّموه لنا. تحت ماكياج الجسد كائنٌ آخرُ يَرْفض الماكياج، كائنٌ غيرُ ذلك الذي صنعوه، كائن ماكياج يرى العالمَ بغير أعينهم.»

هذه الفقرة كانت سببًا في ألاّ تُنشر القصةُ بدعوى أنّ فيها ما يسيء إلى الدين! قالوا إنّه ينبغي قصُّ جملة «لا للديانات.» فاعتذرتُ، وسَحبتُ القصة، إذ التعديلُ أو الشطبُ سيربكان المعنى المراد، حيث يتطارح عربيٌّ وغربيٌّ همومَهما المشتركة.

ضحكتُ مع نفسي: إذ هل بالإمكان أن أجعل ميشيل، العلمانيَّ الغربيَّ، الذي لم يصله منّا إلاّ الصورُ القاتمة، يقول: «إنّي مسلم»؟

حادثة أخرى

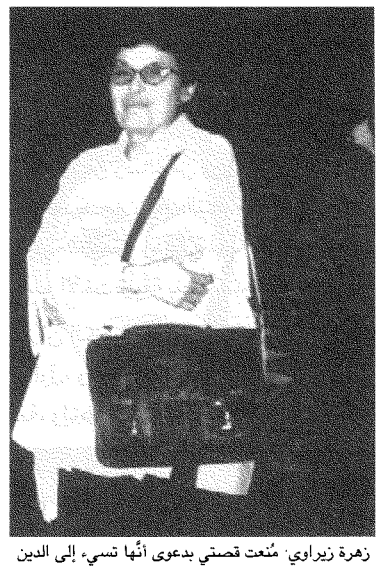

زهرة زيراوي: مُنعت قصتي بدعوى أنّها تسيء إلى الدين

عندما توفّي الشاعر أحمد بركات كتبتُ نصًا شعريًا يَعْكس حالَ الفقد الفجائيّ لشاعرٍ شابٍّ له دورُه في خريطة الشعر بالمغرب. وقد جاء في مطلع النصّ: «قال يا شبيهتي في الإثم...»

وطبعًا «الإثمُ» هنا أعني به قلقنا الوجوديَّ، قلقَنا الإبداعيَّ، خبزَنا المشترك. ولكنْ طُلِب منّي أن أغيّر «الإثم» لأنّها تَحْمل ما تَحْمل من دلالة!

بالنسبة إليّ، هذا الأمرُ لا يُقْلقني نهائيًا، لأنّ المنابر أساسًا تابعةٌ للدولة أو لأحزاب سياسية، لها حواريوها ومريدوها وآراؤها ورؤاها. وإذا أردتُ أن أَعْرض فكري كما هو، فينبغي أن يَصْدر عن مؤسسةٍ لي، لا عن مؤسسات الدولة أو الأحزاب أو...

ولكنّ المؤلم هو غيابُ حركة جدلية تتأمّل الزمرة وتفكّر فيها كموضوع وكذات. في التصور الفعّال أتذكّر ما قاله رونيه أوبير في **فلسفة التربية** في باب القيم الثقافية: «ما يَخْلق اللبسَ أنّ التصوُّرات الجمعية، بعد أن تُنظم في البنية النفسية لمجتمع ما، تجري تمامًا مجرى القوى الميكانيكية الآلية، وتَكْسب الثباتَ والانسجامَ، وكلَّ ما يُمْكن أن يَضْمن بقاء المجتمع نفسه وعلى حاله، بعد أن انسحبتْ من أفراده كلُّ غائية وكلُّ حرية خلاقة.»

إنّ هذا التصلُّب وهذه الآلية يدفعان إلى تصحُّر التصورات الجمعية في ظواهر ومؤسساتٍ اجتماعية، وتصبح سلطةُ المؤسسة هي الحقيقة. وإنّ تجمُّد هذه التصوُّرات قد دَفَعَ بجماعة من المبدعين، الذين مرُّوا من الطاحون نفسه عندما أُسندتْ إليهم مهامُّ في السلطة الثقافية، إلى أن يمارسوا ما مورسَ عليهم من سلط. وسرى الاستنساخُ وفق صورته الأولى، أو قُلْ هو أشدُّ وأنكى.

أعتقد أنّ ثقافةً لا يوجد فيها حوارٌ، ولا تُفْرد مكانةً لرأي الآخر، هي منذ البدء ثقافةُ التمركز حول الذات. إنّها ثقافة تقف على بابٍ مغلقٍ، ولكنّها تدّعي رغم ذلك أنّها الحاملُ لأسرار المعرفة!

ما نراه هنا وهناك في عالمنا العربيّ يجعلنا نتساءل: هل أبو حيان التوحيدي عاش في زمنٍ أكثرَ حريةً وفكرًا وتأمُّلاً، وأقلَّ سلطةً من زماننا؟ وإلاّ فكيف تأتّى له أن يقول في **المقابسات** صفحة ٣٥: «ما أعجبَ أمر أهل الجنة!.. قيل: وكيف؟ قال: لأنّهم لا عملَ لهم إلاّ الأكلُ والشربُ والنكاح. أما تضيق صدورُهم؟ أما يكلّون؟ أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال التي هي مُشاكلةٌ لأحوال البهيمة؟ ألا يأنفون؟ ألا يضجرون؟»

ماذا لو قال مثلَ هذا الكلام، أو حتى أقلَّه، أحدُ المفكرين أو الأدباء العرب وسعى إلى أن يَخْرج بالفكر إلى تأمُّلٍ أوسع وأعمق؟ ألا تكون المحرقةُ بانتظاره؟ أتذكّر هنا ما أثارته روايةُ **وليمة لأعشاب البحر** من زوابع، وكيف كان الإقبالُ عليها كبيرًا في معرض الكتاب بالدار البيضاء منذ أكثر من عامين، وكيف كان نفاذُها في اليومين الأولين. وأتساءل: هل كلّ هؤلاء الذين قرأوا هذه الرواية تحوّلوا عن معتقداتهم وعمّا آمنوا به، واتّجهوا إلى حيدر حيدر في **وليمته**؟ أم أنّ هناك مآربَ معينةً دَفَعَتْ بسلطٍ معينةٍ إلى افتعال ذلك؟

ثم بعودتنا إلى الدين أساسًا، هل نجد هناك نصًا يدعونا إلى مجابهة أفكار الناس وقتالهم، أم أنّ هناك دعوةً إلى الحوار؟

أليس عندما ينقلب المحرَّم إلى النقيض يصبح الرعبُ داخل المجتمع سيدًا؟ لقد تداخلتْ نصوصُ محرَّم المقدَّس بنصوص السلطان. بل إنّ ما تشاؤه السلطةُ هو تغييبُ نصوص المقدَّس لتحلَّ هي محلَّها، أو لتتداخلَ معها حسب الحاجة. نتذكر هنا كتاب **توظيف المحرَّم** للدكتور سليمان الحريتاني حين يقول: «كيف جرى تصنيعُ النص المزيَّف وحَلَّ محلَّ النص المقدس... وكيف وُظِفَّ المحرَّم ليخدمَ مآربَ خاصةً يكتوي بها المجتمعُ منذ زمن بعيد وما يزال.»

دفاعًا عن الحوار

بقي أن أشير إلى أنّني، وأنا أقرأ ملفّ «الرقابة في مصر» الذي سهرتْ عليه مجلةُ الآداب البيروتية (عدد ٢٠٠٢/١٢/١١)، استوقفتني مقالة «الرقابةُ وتوابعُها» للمفكّر نصر حامد أبو زيد، إذ جاء فيها (ص ٧١ ـ ٧٢) أنّ كتاب **محمد** لصاحبه مكسيم رودنسون قد أُوقف تدريسُه في الجامعة الأميركية بالقاهرة بعد أن كَتَبَ عنه صلاح منتصر في عموده بجريدة **الأهرام**. وذَكَرَ أبو زيد أنّ وزير التعليم العالي قال «إنّ الكتاب يقول إنّ القرآن الكريم ليس من وحي اللّه سبحانه، ولكنْ كَتَبَه واحدٌ كان يجيد الشعرَ، ولولا أنّه مكتوب على شكل شعر من النبيّ ﷺ ما استمرّ القرآن... وقال الكتابُ أيضًا إنّ الرسول في سلوكياته تزوج السيدة خديجة لأنّها كانت غنية، وهو كان يريد أن يرتفع إلى مستواها، ولمّا تزوّجها وَجَدَها سيدةً كبيرةً في السنّ لم تُشْبع شهوتَه الجنسية.» قرأتُ هذا وعجبتُ كيف أنّ مجلس الأساتذة يفوته الأمرُ طوال فترة تدريسه، ولا يتحقّق منه إلاّ بعد أن يثيره الأستاذ صلاح منتصر!

أقول هذا دفاعًا عن الحوار، الغائبِ حتى داخل أكبر المؤسسات الثقافية، وهي الجامعة. وإلاّ فكيف يُمْكن أن يَفْهم المرءُ ما أشارت إليه د. سامية محرز في موضوعها «**الخبز الحافي**: وثيقة الإدانة» (الآداب ١٢/١١، ٢٠٠٢، ص ٦٣): «في أثناء أزمة **الخبز الحافي** انقسم قسمُ الدراسات العربية بالجامعة الأميركية الذي أنتمي إليه بين متضامنٍ معي ومهاجمٍ لموقفي. ووُجِّهتْ إليّ داخل القسم تهمةُ التحرّش الجنسيّ بطلابي [!]»

إذا كان هذا هو واقعَ الحال داخل الجامعة والقسم، فما بالُكَ بسُلط المنابر وكافة أشكال السلطان؟ أليست أكثر رحمةً؟!

زهرة زيراوي

كاتبة مغربية. من إصداراتها القصصية الأخيرة بعنوان محض حكاية [illegible]